مجلة المختار للعلوم الإنسانية 01 (01): 69-82، 2003

Research Article

Open Access

طبيعة التقدم الحضاري عند الطهطاوي

أمان عبدالمؤمن قحيف

قسم التفسير، كلية الاداب، جامعة عمر المختار

Doi: https://doi.org/10.54172/psq7q881

المستخلص: يتناول هذا البحث مفهوم التقدم كما رآه رفاعة الطهطاوي، مركزًا على علاقته بالزمن، وتحليله لتفضيل التقدم الأحادي الجانب مقابل الثنائية، والتفاعل بين التراث والابتكار. يفحص البحث فكرة أن التقدم مرتبط بشكل لا يتجزأ بالحتمية التاريخية، من خلال رؤية الطهطاوي للحضارة الإسلامية وإمكانيتها للتقدم. يسلط التحليل الضوء على التفاعل بين التقدم والزمن، مؤكدًا الحركة المستمرة للإنسانية نحو الأمام. يتناول الطهطاوي في إيمانه بقدرة الإنسان على المساهمة في التقدم، مبرزًا ترابط التطور الاجتماعي والتحسين الأخلاقي والتقدم المادي. يتناول البحث أيضًا تساؤل حول مدى استمرارية التقدم، مشيرًا إلى دور وكالة الإنسان والسياق التاريخي. تظهر الرؤية المتفائلة للطهطاوي تجاه قدرة الإنسان على تشكيل مستقبله في سياق إيمانه الإسلامي، مؤكدًا إمكانية التحول الثقافي والاجتماعي.

الكلمات المفتاحية: التقدم الحضاري، رفاعة الطهطاوي، التطور الاجتماعي.

The nature of civilizational progress according to Al-Tahtawi

Aman Abdul-Mumen Qahif

Department of Interpretation, College of Arts, Omar Al-Mukhtar University

Abstract: This research delves into the concept of progress as envisioned by Rifa'a al-Tahtawi, focusing on its relationship with time, the unidimensionality versus duality of progress, and the interaction between heritage and innovation. The study examines the idea that progress is inexorably tied to historical inevitability, viewing it through the lens of al-Tahtawi's perspective on the Islamic civilization and its potential for advancement. The analysis reveals the interplay between progress and time, emphasizing the continuous forward movement of humanity. Al-Tahtawi's belief in the capacity of humans to contribute to progress is explored, highlighting the interconnectedness of societal development, ethical improvement, and material advancement. The research also addresses the question of whether progress is perpetual, suggesting that human agency and historical context play pivotal roles. Al-Tahtawi's optimistic view of humanity's ability to shape its future unfolds against the backdrop of his Islamic faith, emphasizing the potential for cultural and social transformation.

Keywords: Civilizational progress. Rifaa Al-Tahtawi. Social development.

The Author(s) 2023. This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (http://creativecommons.org/licenses/by/4.0/) , which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium ،provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

تمهيد

نعتقد انه علينا ان نناقش عدة مسائل إذا اردنا ان نكشف عن طبيعة التقدم الذي كان الطهطاوي يهدف الى القول به .. هذه المسائل هي : علاقة التقدم بالزمن .. التقدم بين احادية الجانب وثنائيته .. التقدم بين الوافد والموروث.

أولاً : علاقة التقدم بالزمن :

ثمة نص يخدم قضيتنا المطروحة للنقاش هنا، هذا النص هو قول الطهطاوي " كلما تقادم الزمن في الصعود رأيت تخلف الناس في الصنائع البشرية والعلوم المدنية ، وكلما نزلت ونظرت الى الزمن في الهبوط رأيت في الغالب ترقيهم وتقدمهم في ذلك ، وبهذا الترقي وقياس درجاته ، وحساب البعد عن الحالة الأصلية والقرب منها ، أنقسم الخلق الى عدة مراتب : المرتبة الأولى: مرتبة الهمل المتوحشين . المرتبة الثانية: مرتبة البرابرة الخشنين . المرتبة الثالثة : مرتبة أهل الأدب والظرافة والتحضر والتمدن ." [1]

وهدفنا هنا ان نكشف عن علاقة "التقدم" – باعتباره " حتمية تاريخية " – بالزمن ، فالإنسان هنا يتقدم بحسب البعد او القرب من الحالة الأصلية حالة " اللاتقدم " ، " اللامنجز " .. فالبدايات الزمنية الأولى للإنسان مرتبطة بلحظة " ما قبل التقدم " ، ما قبل المنجز " فالتقدم وليد تفاعل الإنسان مع الوجود والكون والطبيعة ، في إطار " الزمن " فحيث بقاء الإنسان " داخل الزمن " حيث يتواصل " التقدم " وثمة اعتقاد لدى مفكرنا بخروج الإنسان من " الزمن" مع نهاية التاريخ .. ويكفي ان تنظر الى التاريخ لتعرف ان الإنسان يتقدم مع مروره .

واذا كان النص المطروح يشير الى تواصل التقدم الى الامام مع الزمن فان هذا أمر لا يمكن فهمه الا في اطار النظر الى التاريخ العام للإنسان ، حيث لا توجد امة من الأمم الإنسانية تقدمت بشكل متواصل منذ نشأتها الأولى الى الآن ؛ اذ من البديهي ان تتعرض الأمة ، أي أمة ، الى حالات من الانكسار والنكوص ، والتردي الحضاري . حيث يقف " النمو الحضاري لها لأسباب قد تكون مرتبطة بذات الأمة نفسها أو تكون مرتبطة بعوامل خارجة عن إرادتها ولنا ان نتفق مع الرأي الذي يقول : لم يحدث ان انساناً عاقلاً آمن في يوم من الأيام بنوع من التقدم يسير في خط مستقيم غير متقطع من غير ان يتعرض لارتدادات او انحرافات في الاستمرارية، وذلك لدرجة اكثر حدة ليست الضرورة مدمرة لهذا الإيمان .[2]

والحق انه يصعب القول من الناحية الواقعية إن النظر الى التاريخ الإنساني في إطاره العام وليس تاريخ كل أمة على حده يكشف واقعياً عن التقدم الإنساني " المتصاعد " إذا كيف يتسنى لنا الحكم بأن حالة " التقدم " العلمي والتقني خلال العصور الوسطى كانت أكثر تقدماً منها في الحضارة الفرعونية القديمة ، إن المكتشفات لازالت تمدنا الى الان بان هذه الحضارة تقدمت في العديد من الجوانب بشكل ربما لم تصل اليه الحضارة المعاصرة الى الان فهناك العديد من الامراض التي عالجتها الحضارة المصرية القديمة ، ولم نعرف السر في علاجها الى الان !!

ويكشف حديث الطهطاوي عن ان التقدم يعد حتمية او يمثل قانوناً طبيعياً مثل قانون الطفو او الجاذبية او " قوانين الحركة " او " قانوناً حضارياً " او ان القول بـ" التقدم " يقدم تفسيراً علمياً للتاريخ ، وبهذا الشكل تكون قوانين التاريخ مساوية او مشابهة لقوانين الطبيعة .. وهذا نقد يوجه الى كل القائلين بمثل هذا الرأي .

بهذا او ان صح هذا يكون من حقنا القول ان الطهطاوي كان يرى ان الإنسان سيصل الى اقصى حد ممكن من السعادة في المستقبل ، وهذه هي النتيجة الطبيعية للإيمان بالتقدم في التاريخ الإنساني .. وبناءً على ذلك يمكن القول " ان فكرة التقدم – التي يقول بها رفاعة مع أساتذته الفرنسين –هي إذا نظرية تتضمن تركيباً للماضي ونبوءة للمستقبل انها قائمة على تفسير للتاريخ يعتبر البشر يتقدمون ببطء في اتجاه محدود ومرغوب فيه .. وتشير الفكرة الى ان وضعاً من السعادة سيتم التمتع به في آخر الأمر باعتباره : قضية العمل العظيم للأرض " (3)

وثمة نقطة لها اهميتها في هذا السياق وهي : هل التقدم كما يراه الطهطاوي مطرد ، ولا نهائي ، أي ان الإنسان سيظل يتقدم الى أمد غير محدود؟ ان الايجابة بالإيجاب على هذا التساؤل تعني ان الزمن لن ينتهي ، ووجود الإنسان على الأرض قائم الى ما لا نهاية له .

ولقد اجتهدنا في البحث داخل مؤلفات الطهطاوي عن إجابة مباشرة عن التساؤل ، إلا أن الطهطاوي نظرياً لم يكن يعالج فكرة التقدم كمصطلح فلسفي أو اجتماعي بشكل مباشر ، لذا لم نقف على مناقشة مباشرة لهذه القضية .. حيث كان الرجل يعني بشكل خاص بـ " التمدن " للأمة، أي اخراج الأمة الإسلامية من حالة الركود أو الثبات الحضاري التي كانت تعانيها آنذاك الى حالة الترقي والتقدم .

من ثم حق لنا ان نقول ان الطهطاوي " المفكر المسلم " الذي رأى في الدين الإسلامي مثالاً للاعتقاد ، ورأى فيه دعوة دائمة للتمدن والتقدم ، ورأى ان إرسال الرسل كان في جانب منه يهدف الى تمدن الناس . ان الطهطاوي الذي رأى كل ذلك لم يكن يقول تحت أي ظرف من الظروف بلانهائية الوجود الانساني ولا نهائية التقدم .. وثمة دليل على ذلك وهو انه عندما كان يقرأ الفكر الفرنسي كان لا يغفل عن مرجعيته الإسلامية .. من ثم كان ينتقدهم قائلاً "غير ان لهم في العلوم الحكمية حشوات ضلالية مخالفة لسائر الكتب السماوية ويقيمون على ذلك أدلة يعسر على الإنسان ردها [4] .

خلاصة القول إذن ان لطهطاوي كان شديد الإيمان بقدرة الإنسان على صنع التقدم وبالتالي فالإنسان المسلم الذي يعاني من حالة التردي و الثبات الاجتماعي قادر على ان يستبدل هذه الحالة الحضارية بحالة اخرى هي حالة النهوض و التقدم والتغير الاجتماعي وهو قادر على الدخول في الحالة الأخيرة بما ورثه من موروث حضاري مادي وروحي وتراث يدفعه ويحفزه باتجاه تجاوز الواقع وتخطي عقباته، وقادر على تحسين اوضاعه وتغييرها نحو الأفضل طالما أنه موجود في الزمن.. وهي نظرة تفاؤلية على كل حال ؛ إذ تفترض أن إنسان العصور التالية سيكون أفضل حظاً من إنسان العصر الحاضر بشرط أن يأخذ الأول بأسباب التقدم ويعرف عوامل النهوض .

أي أن الانسان قادر على صنع التقدم الحضاري في المستقبل الذي سيكون من حظه او نصيبه العيش داخله وليس ثمة ما يشير الى ان الزمن ممتد الى ما لا نهاية ، بل على العكس ، هناك ما يشير الى ايمان الطهطاوي بنهاية الزمن عندما يتكلم عن الميعاد والأمور الميعادية .. والانسان في اطار تاريخه العام يتقدم عند الطهطاوي بشكل مستمر، وينتقل دائماً من مرحلة حضارية متأخرة الى مرحلة حضارية اكثر منها تقدماً .

ثانياً : التقدم بين احادية الجانب ثنائيته:

بالامكان معرفة راي مفكرنا في هذه القضية اذا قرأنا قوله " تمدن الوطن عبارة عن تحصيل ما يلزم لاهل العمران من الأدوات اللازمة لتحسين أحوالهم حساً ومعنى .. في تحسين الأخلاق والعوائد ، وكمال التربية وحملهم على الميل الى الصفات الحميدة واستجماع الكمالات المدنية ، والترقي في الرفاهية .. " [5] .

اذا كان التمدن يعنى تحصيل ما يلزم لاهل العمران من الأدوات اللازمة لتحسين احوالهم حساً ومعنى ، مما يؤدي الى تحسين الأخلاق ، وكمال التربية وحمل المجتمع على الاتصاف بالصفات الحميدة وكذلك استجماع الكمالات المدنية، والترفي في الرفاهية على حد تعبير مفكرنا فان الاهتمام بالجانبين المادي والمعنوي يبدو شديد الوضوح .

من ثم فالتقدم هنا لا يقتصر على جانب دون أخر ولا يعلى جانباً على الأخر ، فالجانب المادي ليس بأهم من الجانب الروحي ، والعكس صحيح ؛ إذ لا تستقيم الحياة بأحدهما فالتقدم هنا ليس احادي الجانب .. ولا يخفى ان هذا التصور للتقدم منبثق من جوهر الإسلام ذاته ، إذ المعروف أن الإسلام يتعامل مع الإنسان باعتباره مادة وروحاً ، ولايفضل ، ولايعلى ، ولا يزكى ؛ أحد الجانبين على الآخر .. ويتمثل الجانب المادي في إعمار الكون، ويتمثل الجانب الروحي في عبادة خالق هذا الكون والوجود تماماً مثلما اراد الإسلام للإنسان ان يعيش الحياة محاولاً تنميتها ، ومتمتعاً بها ، وفي نفس الوقت يعبد خالق هذه الحياة . قال تعالى " ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك " (القصص77) ، " فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور " (الملك 15) .

والتقدم الذي يتحدث عنه الطهطاوي يعتمد على العلم ومكتسباته حيث اعتماد المنهج العلمي في فهم الطبيعة يعد اساساً وشرطاً ضرورياً لتحقق عملية التقدم على مستوى الواقع المعاش لذا أشار الى أهمية الإفادة من العيش في بوتقة الراهن الحضاري ، وأدرك ضرورة أن يسخر اوقاته في حث ديار الاسلام على البحث عن العلوم البرانية والفنون والصنائع ،" فان كمال ذلك ببلاد الافرنج أمر ثابت شائع والحق أحق أن يتبع ولعمر الله أنني مدة اقامتي بهذه البلاد في حسرة على تمتعها بذلك وخلو ممالك الاسلام منها .. " (6)

ويكشف هذا النص عن الوعي بحتمية الأخذ بالمنهج العلمي في دراسة العلوم الطبيعية اذ لا سبيل امام الانسان لدراسة الطبيعة وفهمها بدون الالتزام بالمنهج العلمي ، واتخاذ العلم سبيلاً لهذا الفهم والاستيعاب .. وهذا امر يؤكد ايمان المفكر العربي المسلم بالعلم ، ويسجل احترامه له وللفهم الواعي القائم على أسس علمية للكون والوجود ، وهو في هذا ينطلق من جوهر الإسلام ذاته الذي أكد على العلم وأهميته ورفع شأن العلماءً .. وتكشف رؤية رفاعة هذه عن أمرين هما :-

أ- أنه تنبه قبل غيره من المفكرين – الذين ظهروا في الحضارات الأخرى – إلى ان القضاء على الجانب الروحي في الإنسان يؤدي إلى إحساس الإنسان بالاغتراب عن الكون والوجود ؛ وهذا إحساس لا يزول عن الإنسان إلا بإشباع الجانب الروحي لديه .

ب- أن انغماس مفكرنا في الحياة الفرنسية المادية لم يؤثر في موقفه من الروحانيات التي كان يحياها في الشرق العربي الإسلامي ؛ وترتب على ذلك انه لم يتخل عن هذا الجانب في حياته الشخصية ودعواته الفكرية ، ولم يقع في براثن ما وقع فيه غيره من المفكرين العرب الذين جاءوا من بعده وذهبوا الى انه لا خلاص للأمة الا بتمثل الحياة المادية فقط ، وإهمال الناحية الروحية إذ رأوا ان سبب ركود الشرق انما يكمن فيها .

ثمة وعي اذن باهمية الاهتمام بالجانب المادي والجانب الروحي .. ولقد ادرك هذه الحقيقة بعض الباحثين في فكر الطهطاوي ، حيث قيل ان " التقدم الحضاري عنده يقوم بصفة عامة على جانبين هما التقدم المادي والتقدم المعنوي – الروحي؛ فالتمدن المادي هو " التقدم في المنافع العمومية .كالزراعة والتجارة والصناعة " . والتمدن المعنوي هو " التمدن في الأخلاق والآداب ، يعني التمدن في الدين والشريعة " [7] .

ثالثاً : التقدم بين الوافد والموروث :-

معلوم لدينا أن الطهطاوي ، يأتي على رأس تيار يمكن أن نطلق عليه التيار التحديثي وقتها ، ويوصف جهده الفكري بأنه " يتسم بشكل جوهري بأنه يتركز حول الحداثة ، وهو ما أطلق عليه التحديث ، وليس العودة إلى المصادر . غير أن هذا التيار ، الذي كان الطهطاوي أشهر أعلامه في مصر ، لم يكن تيار أنصار الاستسلام أمام الهيمنة. إن قراءة الأعمال والوثائق التي تركها هذا التيار توضح أن بحثه عن الحداثة كان بحثاً اصطفائياً ونقدياً "[8].

وقد اطلق على هذا التيار اسم " التيار الليبرالي " ، إذ اعتبر البعض أن أنصار هذا التيار ينادون بالحرية الفردية، ويؤكدون حتمية التحديث ، مع اعتماد النموذج الغربي كطريق للنهوض.

منهجية التحديث لدى التيار التحديثى بعامة لا تعتمد إذن على العودة إلى المصادر والجذور القديمة ، فهو تيار ليس لديه الحنين الرومانسي لفترة تاريخية معينة ، أي أنه ليس

رومانتيكيا يقع تحت التأثير التام للحظة حضارية ماضوية معينة .. وبالرغم من هذا فإن أنصار هذا التيار من العرب والمسلمين لم يستسلموا للهيمنة التي فرضها الغرب، او حاول أن يفرضها بعلومة وتقنيته .. والسؤال هنا هو إذا كان الليبراليون وزعيمهم الطهطاوي تهفو نفوسهم وعقولهم إلى التحديث دون العودة إلى المصادر فهل معنى ذلك أن يرفضوا التراث بعطائه وأطروحاته بكافة قيمها وأشكالها ؟ .. إن من الواضح أن هذا التيار يعمد إلى التحديث انطلاقاً من القديم ، وليس انفلاتاً منه ، تطويراً له وتحديثاً لمفاهيمة وليس قطيعة معه أو رفضاً له ، لذلك فإن جهود محمد على النهوضية هي في نظر الطهطاوي تحسين للواقع سواء على مستواه الفكري أم النظري ، وليس هدماً لهذا الواقع ، أو تبديله كلية .. فالانطلاق هنا هو في صميمه تطوير للجذور ، وتحديثها وعصرنتها .. لذا فإن لغة الثناء على محمد على وأسرته تأتي على النحو التالي " ليس هذا التقدم العجيب ، والسبق في ميدانه الرحيب ، إلا من عهد المرحوم محمد على وورثته من بعده ، فكل منهم أبدى في مصر من المحسنات بقدر طاقته وجهده ، وعلى حسن نيته وخلوص قصده " [9] .

من ثم ليس من الغريب أن نجد رفاعة أثناء تأكيده على قيم التقدم والنهوض يستلهم التراث في تأكيدها ، فالعمل ، والحرية ، والمساواة ، والوعي هي في جوهرها قيم أكدها التراث ، الذي هو " خزان للأفكار والتصورات والرؤى تأخذ منه الأمة ما يفديها في حاضرها أو ما هو قابل لأن يعين على الحركة والتقدم " [10].

وتجدر الإشارة الي أن هذه النظرة إلى التراث غلبت على الإصلاحيين كما غلبت على الليبراليين من العرب والمسلمين ، وهي نظرة لها وجاهتها ؛ إذ ليس من المحبب لدى الواقع ، بل ليس من المطلوب لإنجاح الجهود النهوضية أن يتم التحديث دون التواصل مع الموروث لأن للموروث خطورة في تشكيل الوجدان وصياغة الشعور ، فالتراث بمعنى من المعاني هو بمثابة موروث له دور الفاعل في توجيه السلوك وإدراك الكون وفهم الوجود .

وإذا كان التراث كذلك فرفضه ، والتمرد عليه كلية ، والتمادي في صب اللعنات عليه ، هذه كلها مقدمات تؤدي نتائجها إلى إجهاض المحاولات النهوضية ، لأنها تخلق خصومة وتصنع عداوة ، ومع من ؟ مع وجدان الأمة وشعورها . وهذا من شأنه خلق الصراع بين

القديم والجديد.. وما تم إحباط العديد من المحاولات التنويرية في عالمنا العربي إلا نتيجة لتبنيها موقفاً عدائياً مسبقاً من التراث .

وكي لا يحدث صراعٌ بين القديم والجديد عند الطهطاوي ، جعل يلوح بأن قيم التقدم والنهوض هي قيم في ذاتها متحققة على مستوى الواقع في تاريخ الأمة الماضي .. إن التأكيد على سلامة المستحدث ، وحتمية الأخذ به ، والهجوم في نفس الوقت على القديم كان من شأنه أن يعدم فرص نجاح كل المحاولات التي قام بها الطهطاوي ومدرسته .. ولقد وعد مفكرنا ذلك تماماً ، لذلك رأيناه ينقل للأمة واقع " الآخر" وكشف عن حسناته التي تتفق من حيث الجوهر مع الموروث الإسلامي ، والإرث الحضاري لأمة ، وتحدث عن سلبيات واقع " الآخر " وكشف عن عدم انبهاره بها بل استنكرها ، ورفض القول بانسجامها مع الطبيعة الإنسانية .. ولقد كان الهدف الأسمى لديه هو أن تتعرف الأمة على واقع غيرها وعلى تقدمه فتعكف على دراسة واقعها وعلى استدراك نقاط ضعفه ، وعلاج سلبياته.

والحق أن رفاعه لم يقع في ازدواجية الموقف من " الآخر " إزدواجية الإعجاب به أو الانبهار ، ورفضه واستنكاره كلية في نفس الوقت.. إن مرجع ذلك أن رفاعة كان واعياً بحالة الانحطاط الحضاري لمجتمعه ، لذا لم يكره تقدم " الآخر " بل أراد لواقعة أن يحذو حذوه في النهوض والانعتاق من التخلف.

من هذا المنطلق حق لنا القول إن رفاعة كان يريد من الأمة أن تنقل من الغرب " العام " دون الخاص والعام هو الحضارة اما الخاص فهو الثقافة- ولقد قيل الخاص الذي يقابل ما اصطلح على تسميته باسم " الثقافة : ، ومن جهة ثانية : العام الذي اصطلح على تسميته باسم " الحضارة " . والخاص هو الخصوص .. الفريد غير المشترك والذي يميز شعباً من شعب ، وأما العام فهو المكتسب المشترك بين أكثر من شعب ، وما يمكن نقله من شعب إلى آخر " [11] لنا أن ننقل الحضارة " العام "، ولا ننقل " الخاص " – الخصوصي ؛ لأن " للآخر " خصوصياته التي تميزه ، ولنا أيضاً خصوصياتنا التي تميزنا وتشكل هويتنا . ولنا أن نتجه إلى الغرب ، ليس باعتباره غرباً في ذاته ، وليس بهدف التمغرب ، او تغريب المجتمع ، لأن هذا يعني تخريب المجتمع وليس تغريبه. وعلينا أن نحتفظ بالخاص بنا ، بما يميزنا عن غيرنا ، كي لا تضيع هويتنا ، وتتماهى خصوصيتنا ، وإذا فقدنا

هذه الأمور فإنها ليست ثمناً بخساً للتقدم ، والتمدن .. خاصة إذا كانت هناك افتراضية تؤكد إمكانية التقدم ، والتمدن ، والتحضر ، مع الاحتفاظ بالهوية والخصوصية ؛ والإرث الحضاري ليس سهلاً حتى يتم التفريط به .. والقول بإمكانية الاتجاه أو الإفادة من الغرب لا يجب أن يبيح للبعض رفض الإفادة من الشرق لأن الهدف هو التواصل مع " الآخر " المتقدم ، ولا يعنينا إن كان هذا " الآخر " في شرق الأرض أم في غربها .

ولقد لوحظ أن رفاعة يبدو غير معني بإشكالية الأصالة والمعاصرة ، القديم والجديد ، الموروث والوافد ، إنه يبدو غير معني بها ليس لأن اصطلاحاتها لم تطرح على ذهنه فحسب، بل لأن مضمون القضية غير متكون في ذهنه فقيم التراث حضارية ، وتقدمية، والقرآن أكد المساواة ، والعدل، والحرية حتى في المعتقد.

فما الحاجة إذن للدخول إلى مأزق فكري لا حاجة له به ؛ إذ أنه أدرك تحقق قيم التقدم عند المسلمين .. إن رفاعة ينظر إلى الماضي باعتباره مصدر فخر واعتزاز ، ويرى " الآخر " الغربي باعتباره متقدماً في لحظته الحضارية الراهنة ، وأولى بمن حقق التقدم والتحضر أن ينهض ويتقدم . لذا فإن تخلف الأمة الذي شهده الطهطاوي وقتها كان في نظره كبوة ، حالة طارئة، ظرفاً ، وهذا هو التصور الذي انتقل إلى المفكرين المسلمين من بعده أمثال محمد عبده والكواكبي والعقاد وابن باديس مالك بن نبي وسيد قطب ... الخ

ولقد اشار الدكتور برهان غليون الي هذه النقطة حيث ذكرها باعتبارها رؤية تحققت لدي محمد عبدلكننا نشير الي سبق الطهطاوي لعبده في هذا الأمر وخلاصة القول في هذا السياق ن إشكالية العلاقة بين القديم والجديد ، بين الوافد والموروث ، الأصالة والمعاصرة، لم تكن إشكالية مطروحة على ذهن الطهطاوي بهذه الحدة والعمق ، المطروحة بهما على العقل العربي الحديث .. والحق أن هذا العقل هو الذي فرضها على نفسه ...إذ حلت هذه الإشكالية عند الطهطاوي من خلال فهمه لرسالة الدين ، فالأنبياء أصحاب رسالة تمدنيه ، والإسلام ساهم في تمدن شعوب البلاد التي دخلها .

إذن ليس ثمة عداء بين الدين والتحديث ، أو التقدم ، و التجديد ؛ بل هو يحض عليها جميعها ، ويؤكد حتميتها جميعاً ليحقق الإنسان رسالته في الوجود كما ينبغي لها أن تكون ..

من ثم ما كان للطهطاوي – صاحب هذا الفهم – أن يرفض التقدم والترقي في الحضارة المعاصرة.

ولقد تم نقد هذه الطريقة في التعامل مع الحضارة المعاصرة من أكثر من وجهة، علي التالي :

أولاً :-

فهم فكر رفاعة على أنه وقع في ثنائية افتراض أن " الأنا" بموروثها تختلف مع " الآخر " بعلومه وتقنياته .. ولقد تم نقد الفكر الطهطاوي من هذه الزاوية من قبل البعض حيث قيل " وهذا الطرح الذي قدمه الطهطاوي ليس إلا تكراراً لما حدث في عصور الإسلام الكلاسيكية – بدءاً من نهاية القرن الثاني الهجري حتى نهاية القرن السادس – حين رأى عدد كبير من فلاسفة العرب أن أحد الواجبات الملقاة على عاتقهم من حيث هم مسلمون وفلاسفة في آن ، أن يقوموا ليس فقط بتمثل التراث الوافد إلى ديارهم ، مع تراث الأوائل ، وإنما أيضاً بإجراء عملية توفيق وتنسيق وتعاون بين الشرع وأحكامه والعقل وعلومه . وسنلاحظ أن هذا الطرح الذي استأنفه رفاعة وطبقة على الإسلام والمدنية الغربية قد أغرى عدداً من الإصلاحيين المسلمين فأوقعهم من حيث يدرون أو من حيث لا يدرون في دوامة التقريرات القبلية النظرية دون أن يحلوا المشكلة ، لأن المشكلة ذاتها غير قابلة للحل ما دام أصحابها يفرضون ثنائية جذرية وما دام الطرف الثاني للقضية – أعنى المدنية الغربية – قد ادخل برمته في المعادلة المطروحة" (12)

ثانياً :-

إن هذه الطريقة التي اعتمدها الطهطاوي كانت بمثابة سببٍ فاعل في تجزئة الفكر العربي المعاصروانقسامه الي عدة تيارات حيث قيل في هذا المعنى " إن البحث في موضوعية النهضة كما طرحت في بداية المواجهة بين الشرق والغرب كان يعني البحث في سبل الرقي من موقع الأصالة والهوية المميزة ، لكي يكون الشرق نداً للغرب ، فكان السؤال يدور حول مقدار الاقتباس المطلوب لتلبية شروط الرقي ، إلا أن السؤال أخذ بمرور الوقت مساراً مختلفاً مع تطور فكر " الاقتباس " و " النقل " في عالم الشرق المتسق مع الشعور العميق بالانكسار أمام الفكر الأوربي وتكرّس معادلة الغرب

الغالب والشرق المغلوب ليعطف بالبحث من عصرنة الأصالة إلى تأصيل العصرنة ، لتنبعث من تلك النتيجة ردود أفعال متباينة تشكلت في إطار تيارات معرفية : تيار الأصالة الذي وجد في العودة إلى الماضي كهفاً يقبع فيه كوسيلة للتحصن قبالة سيل التغريب الجارف وتيار المعاصرة الذي أخذه السيل إليه فاكتسب شحنات فكرية عالية التوتر تم إفراغها فيما بعد إيماناً منه بأن الشرق لا طاقة له على النهضة إلا عبر تلك الشحنات .. " [13] .

وإذا أردنا أن نناقش هذه الانتقادات فإنه بالنسبة للرأي الأول فإننا نرى أن موقف الطهطاوي والإصلاحيين من بعده لا يفترض ثنائية – كما يظن الناقد لهم – بل هو موقف يسعى جوهرياً إلى إلغاء ما يفترض أنه ثنائية من خلال إبراز عدم مخالفة الشرع مع إبداعات العقل الإنساني طالما أن هذا العقل يسعى إلى " المصالح العامة " أو" المصالح المرسلة " للناس .. إذ الدين لم يأت ضد مصالح البشر ، فحيثما وجدت مصلحة للناس فثم شرع الله .. ولا يعني هذا سعي الإصلاحيين إلى تطويع الدين لرغبات العقل الأوربي أو الغربي ، أو أي عقل إنساني في أي مكان بدليل أنهم رفضوا كل مظاهر الانحلال الخلقي ، ورفضوا تخلي الحضارة الحديثة عن العقيدة الدينية ؛ وأكدوا أن هذا سبب شعور الإنسان الغربي المعاصر بالاغتراب .. هذا بالإضافة إلى أن مرحلة سؤال النهضة كانت تقتضي مواجهة بين " الموروث " و " الوافد " ولو قضت المواجهة برفض الوافد كلياً باسم الدين لنتج عن ذلك القضاء على كل محاولة نهوضية لإخراج الأمة من أزمتها كما حدث مع التيارات أو الأفكار المادية التي ظهرت في العالم العربي الإسلامي فقد رفض الواقع هذه التيارات، ولفظ دعاتها ، أو اعتبرهم غير مخلصين لتراث الأمة .

أما بالنسبة للرأي الثاني الذي يرى مسئولية نظرة الطهطاوي للحضارة الغربية عن حالات الانقسام التي وقعت بين آراء المفكرين العرب ..فلا ندري ماذا كان يريد الناقد ، هل كان يريد من الطهطاوي أن يقف موقفاً عدائياً من التقدم والعلم والتكنولوجيا ؟ أم يريد منه أن يرفض موروثه وروحانياته ومعتقداته وينطلق يلهث وراء المادة والفكر الغربي أو الشرقي ، ويتحول بالتالي إلى تابع أو ناقل فقط .. لقد حاول الطهطاوي ان يحافظ على هوية الامة وفي نفس الوقت يجعلها تعيش في الراهن ، في المعاصر، كيما تساهم في صنع التاريخ المعاصر.

وخلاصة الامر هنا ، أن الطهطاوي ومن بعده تيار الإصلاحيين الليبراليين من المفكرين العرب والمسلمين آمنوا بإمكانية المواءمة بين المنهج التحديثي وبين موروث الأمة القيمي والعقائدي، وذلك من خلال إدراكهم أن العناصر المؤثرة إيجابيا في عملية النهوض والتقدم هي في صميمها العناصر التي دعي الدين الي الأخذ بها، فالعمل، والحرية، والمساواة، العدل،والإخلاص، كلها قيم دينية، والدارس لأخلاقيات السابقين يكتشف أن صناع حضارتنا وتاريخنا الماضوي قد تحلو بهذه القيم والأخلاقيات.ولقد رأي الطهطاوي ومن بعده الليبراليون العرب أنه لايجب صب اللعنات علي الحضارة الغربية بل علينا كأمة عربية اسلامية أن نأخذ بأسباب التقدم والترقي،تلك الأمور التي لا تتعارض مع موروثنا وإفرازات عقيدتنا.

تعقيب:-

نخلص هنا الى عدة نتائج نذكرها علي النحو التالي:-

اولا: أن التقدم الحضاري وثيق الصلة بالبعد أو القرب من بداية ظهور الإنسان علي الأرض ، فكلما تقدم الزمن في الصعود ظهر تخلف الأمم في الصنائع البشرية والعلوم المدنية ، وكلما نزل الزمن في الهبوط تلاحظ تقدم الأمم وترقيها ..وهذه رؤية تكشف عن الطبيعة التقدمية لفكر الطهطاوي بشكل عام ، إذ ما دام الإنسان يحيا في الزمن فهو قادر علي صنع التقدم والرقي.

ثانياً:- أن التقدم الحضاري عند الطهطاوي ثنائي الجانب ، بمني أنه يري ضرورة ان يقوم التقدم في الجوانب الروحية والمادية علي السواء ، وان يتم الاعتماد عليهما والإنطلاق منهما في صياغة مشروع التقدم والنهوض ، ولا إعلاء لجانب منهما علي الآخر ، وهذا من شانه الكشف عن الطبيعة المتزنة التي تميز بها فكر الطهطاوي بشكل عام.. والحق أن هذه الروح منبثقة من روح الإسلام ذاته ، إذ نظر الإسلام الي الانسان نظرة تتفق مع طبيعة تكونيه وجوهره ، فالانسان ينظر اليه باعتباره مادة وروح .. وقضي هذا الدين بضرورة بل وحتمية مراعاة كنه وجوهر هذا التكوين عند التعامل مع الانسان كموجود يمتلك الوعي والقدرة علي الإدراك .

ثالثا :- يكشف حرص الطهطاوي علي ترقية وتقدم الفهم للدين عن وعيه باهمية الإجتهاد في النظرة الي الموروث ، وهذا أمر يكشف عن إيمان مفكرنا بضرورة ترك باب الإجتهاد – الذي هو سبيل التقدم الحضاري سواء علي المستوي المادي أم المعنوي – مفتوحا .

رابعا :- لم يشعر الطهطاوي ولو للحظة واحدة أن الدين الاسلامي هو السبب في تخلف ديار المسلمين – علي حد تعبيره – بل راي ان غياب الوعي الصحيح بجوهر هذا الدين واوامره هو السبب في تخلف الأمة ونكوصها الحضاري .

الهوامش

1- الطهطاوي.الاعمال الكاملةتحقيق دكتور محمد عمارة.1963..ص2 ص16

2-سمير عبده.العرب والحضارة الحديثة.دار لآفاق.بيروت.1982.ص46

3-ج.ب. بيري.فكرة التقدم بحث في نشأتها وتطورها.ترجمة عارف حديقة دمشق .سوريا.1988 ص36

4-الطهطاوي.الأعمال الكاملةج2 ص159

5-المصدر نفسه ج2 ص469

6-المصدر نفسه ج2.ص11

7-د.فكري نجار.الفكر السياسي عند الطهطاوي .دراسة منشورة ب ((الفكر العربي)) عدد 22-23 .معهد الإنماء العربي . بيروت . 1981 .ص47

8-د.أنور عبد الملك. الفكر العربي في معركة النهضة.دار الآداب بيروت.ج31 .1981 .ص135

9-الأعمال الكاملة.ج1 .ص245

10-د.محمد عابد الجابري.التراث والحداثة .دراسات ومناقشات.مركز دراسات الوحدة العربية.بيروت. لبنان. 1991 م .ص38-39

11-ادونيس.النظام والكلام.بيروت .لبنان .1993 م.ص13-14

12-د.فهمي جدعان. أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العصر الحديث . المؤسسة العربية للدراسات والنشر . الطبعة الأولي . بيروت 1979م . ص122

13-فؤاد ابراهيم.إشكالية الإطار المرجعي في الفكر العربي المعاصر. قراءة نقدية.دراسة منشورة بمجلة ((الكلمه)) .الكويت.العدد السابع.السنه الثانية .1995م- 1425هـ.ص215